السلطة في شعر أبي العتـــــاهية

م. د رؤى حميد منديل حاجم

كلية التربية للعلوم الإنسانية | جامعة بابل

Hum249.ruaa.hamied@uobabylon.iq

الملخص

ينبثق هذا البحث من رغبة في سبرِ أغوار العلاقة بين الشعر والسلطة، من خلال الوقوف على تجربة أحد شعراء العصر العباسي (وهو أبو العتاهية) الذي عدّ صوتا فريدا لا يخضع لقوالب المديح التقليدية. فلم تتجلَّ تلك السلطة بوصفها مركزا سياسيا فحسب، بل ظهرت كقيمة رمزية تتقاطع مع النفوذ، والمكانة، والترف، فكان الشاعر صاحب رؤية اتسمت بالوعي والتمرد الهادئ ضد السلطات الاجتماعية المختلفة، فانعكست بوصفها هاجسا داخليا يتصارع فيه الزهد والشاعر الناصح المقرب من السلطان والنافر لسلطته، فكانت الدنيا والآخرة والفناء والغرور أداة تفتك هيبة السلطة عبر الوعظ والتذكير وتعرية المآل، مستعملا اسلوبا متوازنا بين النصح والتمجيد، حتى جعل شعره وسيلة لتقويم السلطة ومساءلتها اخلاقيا. وعبرت أشعاره عن رفضه لسيطرة الأعراف والمكانة الاجتماعية على مصير الإنسان، واستعمل الشاعر لغة الزهد والحكمة ليقاوم مظاهر الترف والتميز الطبقي.

الكلمات المفتاحية:السلطة، أبو العتاهية، الشعر العباسي، الخطاب الشعري، التوظيف السياسي.

Power in the poetry of Abu al-Atahiya

Ruaa Hameed Mandeel Hajim

College of Education for Humanities|Department of Arabic Language

Hum249.ruaa.hamied@uobabylon.iq

Abstract:

This study stems from a desire to exp

lore the depths of the relationship between poetry and power , through examining the experience of one of the poets of the Abbasid era- Abo al Atahiya- who is regarded as a unique voice that did not conform to the traditional molds of panegyric poetry. Thus, power did not manifest merely as a political center, but rather emerged as a symbolic value intertwined with authority, status and luxury. The poet ,therefore embodied a vision marked by awareness and a quiet defiance against various froms of social authority. Power was reflected as an inner preoccupation wherein the tension between the ascetic and the

advising poet- both close to the ruler yes estranged from his dominion-came to the fore.The binaries of this world and the hereafter, mortality and vanity became tools that undermined the grandeur of authority through preaching , reminder ,and the exposure of inevitable fate. Abu al-Atahiya employed a balanced style between counsel and praise,turning his poetry into ameans of ethical critiqus and moral accountability for power. His verses expressed a rejection of the dominancs of social norms and status over human destiny .He used the language of asceticism and wisdom as a from of resistance against luxury and chass distinction.

Keywords: Authority, Abu al_Atahiyah, Abbasid Poetry, Poetic Discoures,Political Utilization.

المقدمة

لطالما شكل الشعر في الثقافة العربية أداة تعبير ونفوذ، لم يقتصر أثره على الجمالي والفني فحسب، بل تعداه إلى الحقلين السياسي والاجتماعي ، حيث أصبح الشعراء في كثير من الحقب التاريخية اما أبواقا للسلطة أو اصواتا معارضة لها، وفي احيان كثيرة وسطاء بين الحكمة والسلطان ، بين الخطاب الأخلاقي والممارسة السياسية . ويبرز في هذا السياق أبو العتاهية (130_211 هـ) أحد شعراء العصر العباسي الذي انطبع شعره بنبرة زهدية وتأملية ، حملت في طياتها مواقف واضحة – وان بدت مضمرة أو رمزية احياناً- قضايا السلطة بمختلف أشكالها.

لقد حظي مفهوم السلطة باهتمام واسع في مجالات الفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة ،بل حتى في الأدب والنقد الثقافي لكونه مفهوماً مرتبطاً بشبكة من العلاقات الرمزية والمعنوية ، التي تُنتج وتمارس ضمن أنظمة متنوعة تبدأ من الدولة ولا تنتهي عند اللغة والثقافة.

ومن أجل بناء فهم أعمق للسلطة لا بدّ من استقصاء مفهومه في اللغة والمعاجم العربية ، والكشف عن اصوله الدلالية والكيفية التي عبرت بها اللغة العربية عن ممارسات السيطرة والنفوذ الشرعية. فقد ورد في معجم مقاييس اللغة في مادة (سلط) ان مادة السين واللام والطاء أصل واحد ، وهو القوة والقهر ، ومنه التسلط ، ولذلك سُمي السلطان سلطاناً ،والسليط من الرجال هو الفصيح اللسان[1] ،ويشير هذا المفهوم إلى علاقة بين طرفين يفرض أحدهما ارادته على الآخر بما يمتلك من قوة فـ "السلاطة: القهروقد سلطه الله فتسلط عليهم"[2].

وصرح جميل صليبا أنّ "السلطة في اللغة : القوة والقدرة على الشيء والسلطان الذي يكون للإنسان على غيره [...] وهناك أنواعا من السلطات التي تنضوي تحت هذا المفهوم من السلطة النفسية والسلطة الشرعية والسلطة الدينية وسلطة الاجهزة الاجتماعية والسلطة السياسية والتربوية والسلطة القضائية وغيرها"[3].

اما مفهوم السلطة دلالياً فيعدّ من المفاهيم المثيرة للجدل والتأويل في الفكر الإنساني بسبب تشابك أبعاده ، وتعدد دلالاته وتداخلها مع مفاهيم أخرى كالقوة والشرعية والحكم والهيمنة. فمنذ العصور القديمة حتى يومنا هذا لم يكن للسلطة تعريف واحد ثابت بل اختلف فهمها وتفسيرها باختلاف الزمان والمكان والنظم والسياسة والفلسفات التي تناولتها . فشكلت الأسطورة القديمة الحاضنة الأولى لظهور السلطة ، إذ قدمت للإنسان البدائي معرفة طمنت هواجسه وعادت إليه

---

1 ينظر: معجم مقاييس اللغة ، احمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ، بيروت، ط1، 1991: 3|95.
2 لسان العرب، ابن منظور، تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1999: مادة (سلطة).
3 المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982: 1|670.

التوازن مع بيئته المحيطة عبر تلبسها لمبدأ القداسة ، فقدمت قوة غيبية تتجسد في إرادة أو مجموعة ارادات متجاوزة للشرط البشري واضعة الإنسان موضع العبد المندهش المرتعب من سلطانها، مفرزة أنظمة مقدسة ضابطة لإيقاع الأفراد والجماعات منحها الحق والشرعية لممارسة سلطانها ، مضيفاً إليها استعمال الطقوس والأعراف لضمان تجدد استمرارها[4].

وتجلت السلطة في الفكر اليوناني عبر آلية الكبح والسيطرة على بعض اللذات ، وتعود جذورها إلى مجموعة من الفلاسفة الذين اطلق عليهم (الحكماء السبعة) إذ قاموا بوضع تشريعات عدة، بمثابة قوانين، ضمت ارشادات لموظفي الدولة بغية ضبط اعمالهم الإدارية في محاولة للحد من توسيع الملكية الفردية للأغنياء وتمليك الفلاحيين بعض قطع الأراضي . إلا ان السفسطائيين رفضوا فكرة هذه القوانين وعدوها مناقضة للطبيعة مستندين إلى المبادئ الفيزياوية التي تحرك العالم بشكل طبيعي لذا يجب أن تسير الأمور الأخلاقية كذلك تسير بصورة طبيعية ،فقوانين البشر عندهم قاتلة للإرادة الحرة[5]. غير ان سقراط فند فكرة السفسطائيين وأعلى من مكانة الفضيلة التي التقطها بعده تلميذه أفلاطون وبنى عليها موضوعة السلطة بمختلف أصولها في (جمهورية أفلاطون) إلا انها لم تحقق التساوي بين الأفراد لأنها اعتمدت على تصور أسطوري بأن الآلهة خلقت البشر واعطتهم أهمية بحسب المعادن التي خلقوا منها، وألغى أفلاطون أهمية الذات الفردية عن طريق وجوب التبعية لزعيم ما والزامها به، لأنه عدّ الرغبة الفردية المنفصلة عن الرغبات العامة للدولة لا تعني شيئاً[6].

اما السلطة في الفكر الديني فترتبط بعلاقة وثيقة ، إذ يعدّ الدين من أقدم المصادر التي منحت الشرعية للسلطة عبر العصور ، فالسلطة العقائدية ذات الطابع المقدس مستمدة من إرادة إلهية تجعل طاعتها واجبا دينيا لا مجرد التزام سياسي ، الأمر الذي يمنح مؤسساتها طابعاً مقدساً يصعب مساءلته أو معارضته، وتمارس دوراً كبيراً في عمليات الضبط وتحديد قواعد السلوك لجميع الفعاليات الاجتماعية أو الفردية ، فصار الدين وسيلة لضبط السلطة عبر الدعوة إلى العدالة والمساواة . وقد تباينت تمثلات هذه العلاقة عبر العصور والديانات ،فتارة كانت السلطة خادمة للدين، وتارة أخرى كان الدين أداة في يد السلطة[7].

ومع بداية عصر النهضة الأوربية انفك هذا المفهوم من دائرة الميتافيزيقيا متجها نحو النزعة العلمية والاتجاه العقلي، فظهر الاهتمام بالذات الفردية التي اعطت الإنسان قيمة مركزية ومرجعية أساسية في الكون ، فوقف إنسان الحداثة العصامي ضد كل ما يحد من حريته من مؤسسات أو مسلمات فكرية ،وتشكلت الذات المفكرة العقلانية بوصفها نواة مركزية للمشروع الحداثي التي رفعت مكانة الفرد العاقل القادر على التفكير والتحليل واتخاذ القرار بمعزل عن التقاليد والسلطات الموروثة ، هذه الذات التي ظهرت بقوة في فلسفة ديكارت وسبينوزا لوك قادرة على فهم العالم وضبطه بل والتحكم فيه من خلال أدوات العقل والعلم ، غير ان هذه الذات لم تكن معزولة عن السلطة ، بل كانت جزءاً من نظام معرفي أنتج انماطا جديدة من السلطة الحديثة ، وبين ميشيل فوكو السلطة في الحداثة لا تعمل فقط من خلال القمع المباشر ، بل من خلال التشكيل الأفراد كذوات تخضع للمراقبة والانضباط ، وتنتج داخل المؤسسات مثل : المدرسة والسجن والمصنع. وهكذا فإن الذات العقلانية التي تبدو حرة ظاهرة هي في الحقيقة نتيجة لآليات سلطوية حديثة تقوم على التنظيم والمعيرة والتصنيف، فتكون أمر وواقع اجتماعي لا يعمل إلا داخل الجماعة، وتشكل القوة الآمرة التي في

---

4 ينظر: الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية ، فراس السواح، دار علاء الدين ، دمشق، ط8، 1998: 20-21. وينظر: خمسة مداخل إلى النقد الأدبي مقالات معاصرة في النقد ، وليبرس سكوت، ترجمة عناد غزوان وجعفر صادق الخليلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986: 268.

5 ينظر: تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، فاروق سعيد، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ط24. د. ت: 218.

6 ينظر: في الطغيان والاستبداد والدكتاتورية ، دولة خضر خنافر، دار المنتخب العربي، بيروت، د. ت: 58. وينظر: تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده: 224.

7 ينظر: تاريخية الفكر الإسلامي ، محمد أركون ، ترجمة هاشم صالح، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط3، 1998: 225.

حوزتها الامكانات الفعلية لتسير أنشطة الناس بتنسيق المصالح المتعارضة للأفراد والجماعات ، وبالحاق تلك المصالح بادارة واحدة عن طريق الاقناع والقسر[8].

ولا تعد السلطة قوة قمعية تمارس من الأعلى فحسب ، بل هي شبكة معقدة من العلاقات التي تتغلغل في كل مستويات المجتمع، لكونها ممارسة نشاط ما على سلوك الناس ، والقدرة على التأثير في ذلك السلوك وتوجيهه نحو الأهداف والغايات التي تحددها من له القدرة على فرض إرادته ، ليس بالاكراه فحسب وإنما تمارس من خلال التحكم بالمعرفة ، وتنظيم الخطابات وصياغة ما يعد مقبولا في المجتمع ، فهي ليست ما يفرض من الخارج فحسب بل ما يزرع من الداخل عبر المعرفة والخطاب المهيمن ، فيعد الخطاب المهيمن سلطة تمارس بشكل أكثر خفاء وفاعلية ، جاعلا الأفراد يراقبون أنفسهم ويمارسون الأنضباط الذاتي بفعل تبنيهم للخطابات المهيمنة[9].

وبالنظر إلى تاريخ الشعر سنجده من أقوى الخطابات المهيمنة التي مارست فعاليتها كوسيلة من وسائل التأثير والتوجيه. فمنذ الجاهلية تجاوز الشعر وظيفة الوصف والتأمل إلى التأثير المباشر والتوجيه والتحريض والمقاومة ، وأصبح وسيلة فعالة للهيمنة وترسيخ النفوذ عن طريق ارتباطه مع سلطة القبيلة وزعمائها، وحدد لنا جابر عصفور ارتباط الشاعر بالسلطة قائلا: "بدأ التحول من صورة الشاعر المفرد الذي يتحد بالمجموع من قبيلته ، هاديا إياها مايراه سبيلها القويم إلى صورة الشاعر الذي يتحد بمصالحه الخاصة[...] متنقلا بين مواطنها ليزيد منها ، وقد فعل ذلك النابغة والأعشى وكذلك غيرهم من الشعراء الذين كانوا يثابون على المديح في العصر الجاهلي ، والذين أسنوا تقاليد التنقل طلباً للعطاء ، ووضع الأصول الأولى للتكسب بالشعر"[10] فجرى اقتراب الشعراء من الملوك والسياسة طمعا في الحضوة والمكافآت ، وسخرت كلمة الشعر لخدمة السلطة ، فجرى انفصال الشعر عن الرسالة الحقيقية الموكلة إليه. الأمر الذي دفع السلطة آنذاك إلى استقطاب الشعر ايمانا بفاعليته فتدخلت فيه واستحوذت على أصواته بكونها نوعا من أنواع القوة ، فتم تحميله ببعد سلطوي ، فعدّ خطابا للسلطة بكل تشكيلاتها القبلية أو سلطة الدولة أو المذهب أو الانتماء.

اما في العصر العباسي فقد شهد ازدهاراً غير مسبوق وظهرت مميزات جلية ، فأخذ الشعراء يتدافعون عليها فكل "شاعر لديه معتقد وتوجه سياسي يتبناه وينتمي إليه على الرغم من المتغيرات السياسية الكبيرة التي عصفت[...] فهي لم تقف حائلا دون شحذ القريحة الشعرية ، فالشعراء كانوا يحرصون على تسجيل انتماءاتهم السياسية والأحداث في قالب الشعر حيث تم تصوير مبتغاهم الشعري وتوجههم السياسي"[11]. وفي رحاب هذا العصر بزغ نجم شاعر فريد خالف المألوف ليسير في درب الزهد انه إسماعيل بن القاسم بن سويد المعروف بأبي العتاهية الذي ولد سنة 130هـ بالقرب من مدينة الكوفة في بلدة عين التمر من أسرة فقيرة تعيش من عرق جبينها ، نشأ في الكوفة قبل أن ينتقل إلى بغداد حيث لمع اسمه في بلاط الخلفاء العباسيين خصوصا في عهد الخليفة المهدي[12].

ولأن أبا العتاهية لم يكن شاعراً معزولاً عن واقعه ، فقد أنعكست في شعره أنواع متعددة من السلطات :

أولا: السلطة الدينية

تعدّ السلطة الدينية من أبرز الأشكال التي مارست تأثيراً عميقاً في المجتمعات عبر التاريخ، حيث لعبت دوراً محورياً في تشكيل الفكر والثقافة والتشريعات وحتى أنظمة الحكم منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث ،بكونها تحمل هالة القداسة والقوى الغيبية ، وتمتلك القدرة على الهيمنة في عقول الناس بوصفها الممثل الشرعي للخالق على الأرض ، فيعدّ

8 ينظر: ميشيل فوكو المعرفة والسلطة، عبد العزيز العيادي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1994: 43.
9 ينظر: مقدمة في نظريات الخطاب، دايان مكدونيل، ترجمة عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة، ط1، 2001: 20-21. وينظر ميشيل فوكو المعرفة والسلطة: 44.
10 غواية التراث، جابر عصفور، سلسلة الكتاب العربي، وزارة الإعلام الكويتية، مطبعة حكومة الكويت، ط1، 2005: 137.
11 الانتماء السياسي للسلطة في شعر العصر العباسي الأول ، احمد عباس عبد عساف ونجم عبد علي رئيس، مجلة كلية التربية ، العدد 33، 2018: 168.
12 ينظر: الأغاني ، أبو الفرج الاصفهاني، شرحه سمير جابر، دار الفكر ، بيروت، لبنان: 4| 3.

خطابها "نافذ التأثير ، قوي المفعول، وجرعاته تحدث عند المتلقي الانصياع المطلوب، وتصنع استسلامه الكامل لمفعولها السحري"[13].

ولم يكن الشعر بمعزل عن هذا التأثير ، بل تفاعل الشعراء مع السلطة الدينية ، وجسدوا صورها الرمزية في بنية قصائدهم متجلية في صورة الصراع بين الإنسان الحر والخضوع لمؤسسات تستمد شرعيتها من الدين أو تدعي ذلك، خاصة ان الشعر يحمل خطابا ايديولوجيا، فهو منظومة معقدة من العلاقات الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية وينضوي تحته الهيمنة والمخاطر[14]. وفي هذا الاطار يبرز شعر أبي العتاهية بوصفه نموذجاً فريداً لتمثيل السلطة الدينية ، حيث تحولت القصيدة لديه إلى منبر للوعظ والزهد والدعوة إلى التقوى والتذكير بالموت والآخرة ، واتخذت هذه السلطة شكلاً رمزياً و وعظياً استمدت مشروعيتها من النصوص الدينية والاعتقاد بالثوابت والعقاب ، فمضى الشاعر ((يجاهد نفسه مجاهدة عنيفة ، إذ فرض على نفسه الحج كل عام، كما فرض عليها اعتزال الناس والميل إلى الوحدة ، ومفارقة مجالس اللهو والشعر والغزل ، كما كان يفرض على نفسه احيانا أن يصوم عن الكلام ، ومضى يمارس هذه الرياضات الروحية حتى ودع الحياة))[15]وعدّ أول من سن وفتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد في الدنيا[16]. فكان الزهد عنده أداة خطابية محورية اتكأ عليها الشاعر ليكرس مفاهيم السلطة الدينية لأنه عده مشروعا شعريا عكس رؤيته الدينية المنطلقة من إيمانه بمحاسبة النفس والخوف من المصير الآخروي، فتجلت تلك السلطة في قوله:

ألا إننا كُـــــلنّا بَائِدُ وأيّ بَني آدمٍ خـــــــالِدُ

وبَدؤهُمْ كـــــانَ منْ رَبهم وكُـــــــــل إلى رَبّهِ عائِدُ

فيا عَجَباً كيفَ يَعصي الإلهَ أمْ كَيفَ يَجحـــــدهُ الجاحدُ[17]

يتحدث أبو العتاهية عن حتمية الموت وموضوع الرجوع إلى الله عن طريق تذكير الناس بمصيرهم المحتوم ، والعودة إلى خالقهم ليجري محاسبتهم على أعمالهم ، وهو خطاب ديني واضح يحمل وعظا ويستمد مشروعيته من العقيدة الإسلامية.

وقوله:

إذا ما خلوْتَ الدهرَ يوماً فلا تَقُلْ خَلوْتُ ولـــكن قُلْ عَليّ رَقيبُ

ولا تَحسَبَنّ اللهَ يُغْفِلُ مـــا مضى ولا أنّ ما يّخـــفى عَليهِ يَغيبُ

لهونَا لَعـــمرُ اللهِ حتى تَتابَعَتْ ذُنوبٌ على آثـــــارِهنّ ذُنوبُ[18]

في هذه الأبيات يقدم أبو العتاهية خطاباً وعظياً اخلاقياً ، ينبه به الناس إلى أن خلوتهم الجسدية لا تعني انعدام الرقابة الإلهية لأن الله مطلع على كل شيء ظاهر كان أم باطنا، وان الله رقيب على أفعالهم حتى في غياب أعين الناس عنهم ، ويستعمل كلمة (الرقيب)تحديدا المأخوذة من اسماء الله الحسنى . وكأن الشاعر عمد في هذا الخطاب إلى استعمال الأفعال

---

13 الإسلام والسياسة –دور الحركة الإسلامية في صوغ المجال الإسلامي، عبد الله بلقريز، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001: 134.
14 ينظر: دليل الناقد الأدبي ، ميجان الرويلي وسعيد الباغي، المركز الثقافي العربي، بيروت ، ط3، 2002: 89.
15 تاريخ الشعر في العصر العباسي، يوسف خليف، دار الثقافة ، القاهرة، 1981: 88.
16 ينظر: جواهر الأدب، احمد الهاشمي، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان، ط27: 447.
17 ديوان أبي العتاهية ، دار بيروت، لبنان، 1986: 122.
18 ديوان أبي العتاهية: 34.

المضارعة في (تحسبن، يخفى، يغيب) اشارة منه إلى خلق احساسا بالاستمرارية والدوام ، لأن الرقابة أمر لا يتوقف عند الخالق. وبذلك فان خطابه هذا لا يعد مجرد نص شعري بل يمارس سلطة روحية تستمد مكانتها من السلطة الدينية.

وفي أشعاره تجلٍ واضح للسلطة الإلهية على الكون والضمائر في قوله:

لكُلّ أمرٍ جَرى فيهِ القَضا سَبَبُ والدّهرُ فيهِ وفي تَصريفه عجبُ

ما النّاسُ إلاّ مع الدنيا وصاحبِها فكيفَ ما انقَلَبتْ يوماً بهِ انقَلَبوا

يُعَظمونَ أخا الدّنيا فإنْ وثَبَتْ عَليهِ يَوماً بما لا يَشتهي وَثَبوا[19]

يؤكد الشاعر على فكرة إسلامية جوهرية وهي ان لكل واقع مسببات وضعها الله ، وكل ما يجري من حوادث هو بقضاء الله وقدرته ، فالعالم محكوم بقانون إلهي مطلق ، والإنسان فيه مسلوب القدرة على فهم بعض الأشياء ، فهو مطالب بالإيمان والتسليم. وهذا تجلٍ للسلطة الدينية عن طريق إلغاء قدرة الإنسان على السيطرة على مصيره.

وقدم أبو العتاهية مبدأ القضاء والقدر كسلطة حاكمة للإنسان، فقال:

ليسَ الحَريصُ بزائدٍ في رِزْقِهِ اللهُ يقسمُـــــــهُ لَهُ ويُسببُهْ[20]

قدم أبو العتاهية في هذه الأبيات سلطة معرفية ابطلت الإعتقاد البشري بأن الجهد وحده هو المحدد للمصير ، وسلطة تشريعية دينية توعو ضمنيا إلى الرضا بالقسمة لأنه أمر أخلاقي ديني. و يستمر نسق القصيدة في تجلٍ لتلك السلطة ، إذ قال:

أيّ أمرئ إلاّ عَلَيهِ من البِلى في كلّ ناحيةٍ رّقيبٌ يَرقبُهْ[21]

وهنا جعل الابتلاء جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان ، فهو قدره ، ويردد فكرة الرقيب لجميع أعمال الإنسان في الخفاء والعلانية ، لأن هذه الرقابة هي جوهر السلطة الدينية لضمان الالتزام بالقيم . فتجلت السلطة الدينية بوضوح عند أبي العتاهية لأنّه جرد الإنسان من الاختيار ، خاصة وان كثير من الفلسفات نادت بأن الإنسان مخير في بعض المواضع ومنفصل لكنه من خلال هذه الأبيات اعاد تشكيل نظرة الإنسان إلى رزقه ومصيره ومنحه وازعا داخليا لا يستند إلى مراقبة بشرية ، وإنما إلى وجود إلهي متطلع.

وتستمر أشعاره في كثير من مواضعها في تقديم تلك السلطة ، فقال :

نَسألُ اللهَ بِما يَقضي الرّضى حَسبـــــي اللهُ بما شاءَ قَضى

قَد أردْنا فأبى اللهُ لَـــــــــنا وَأرادَ اللهُ شَيئاً فَمـــــضى[22]

يقدم الشاعر السلطة الغيبية الشاملة التي تتحكم في الواقع خارج إرادة الإنسان ، ويقدم الرضا بالقضاء والتسليم له بأنه قيمة روحية عُليا، فجاء بدعاء نابع من تسليم كامل بأن القضاء الذي يصدر من الله مقبول ، وقوله (أردنا فأبى ، وأراد الله فمضى) هو أعلان بأن ارادة الله هي الوحيدة الفاعلة.

ولتعزيز السلطة الدينية قدم أبو العتاهية نقطة ضعف وجودية مركزية في حياة الإنسان ، إذ قال:

---

19 ديوان أبي العتاهية: 34.
20 م.ن: 59.
21 م.ن: 59.
22 م.ن: 240.

أما منَ المَوْتِ لِحي لحا كل امرىءٍ آتٍ عليهِ الفَنا

تَبارَكَ اللهُ وسُبحـــــانَهُ لكُلّ شيءٍ مُدةٌ وانقضــا

يُقدرُ الإنسانُ في نَفسِهِ أمراً ويأباهُ عليهِ القَضــا[23]

افتتح الشاعر قصيدته بتساؤل ليدفع المتلقي إلى الوعي بمحدوديته، لأن الموت هو قرار إلهي نافذ يسقط وهم الوجود، فالله هو المالك المطلق للأنفس ، والإنسان لا يتحكم بمصيره بل يعيده القدر إلى حقيقته المحدودة.

ثانيا: السلطة السياسية

هي ظاهرة اجتماعية تقام في جماعة ، وتمارس من خلال شبكة من العلاقات بين الحاكم والمحكوم ، ولا يمكن أن تمارس دون نظام حاكم تملكه جهة معينة ، وغالبا ما تكون الدولة أو الحكومة التي تمارس قيادة وحكم الناس[24] . وعرف موريس ديفرجيه هذه السلطة بأنها "في كل مجتمع يؤسسها الحاكمون ، وعلى ذلك فهي تعني تارة الحاكمين واختصاصاتهم ، وهذه وجهة نظر مادية، وتعني تارة أخرى الاجراءات التي يمارسها الحكام استناد إلى اختصاصاتهم ، وهذه وجهة نظر شكلية، وتعني تارة ثالثة الحكام أنفسهم وهذه وجهة نظر عضوية"[25].

وتعدّ هذه السلطة من الركائز الأساس التي قامت عليها تنظيم المجتمعات، فهي الأداة التي من خلالها تدار شؤون الدولة ، وتسن القوانين والأنظمة لما لها من قوة قادرة على الأمر والنهي بفعل طبيعتها المهيمنة[26].

ولم ينفصل الشعر عن السلطة السياسية بل ارتبط عبر العصور بعلاقة متشابكة جامعة بين التمجيد والمقاومة ، إذ وظفت السلطات الحاكمة الشعر لخدمة مصالحها بعد أن قدمت للشاعر الأسباب الداعية لمدحها ، فذكر أبو حيان التوحيدي "لا ترى شاعرا إلا قائما بين يدي خليفة ، أو وزير أو أمير باسط اليد ممدود الكف يستعطف طالبا ، ويسترحم سائلا ، هذا مع الذلة والهوان، والخوف من الخيبة والحرمان"[27]. وبذلك فتبادل المصالح كان متحققا بين السلطة والشعر ، غير ان الشعر لم يكن دوما خاضعا بل كان في كثير من الأحيان صوتا حرا معبرا عن آلام الناس وتطلعاتهم، وفي هذا السياق يغدو الشعر أداة سياسية بامتياز تقلق السلطة وتحرك الوعي الجمعي . و جسد أبو العتاهية في أشعاره هذا التوتر بين الشاعر والسلطة ، إذ انفصلت قصائده عن الاتجاه التقليدي في مدح الخلفاء ، ولم يمجد السلطة بقدر ما حمل شعره وعظا للحكام ، ونقد ترفهم عن طريق تذكيرهم بزوال ملكهم دائما ، نحو قوله:

عِش ما بَدا لكَ ســـالماً في ظل شـــــاهقةِ القُصورِ

يُسعى عَليكَ بما اشتَهَيْـ ـتَ لَدى الرّواحِ أو البُــكورِ[28]

تبدأ هذه القصيدة على هيئة خطاب ظاهره إطراء للحياة المترفة ، إلا ان نبرة السخرية سرعان ما تتسلل إلى النص لتكشف عن موقف وجودي ناقد، فالشاعر بإسلوب تهكمي يخبر الحاكم الساكن في تلك القصور الشاهقة والنعيم المتاح بأن هذه الرفاهية هي صورة لعالم زائف هش، لأن كل هذا النعيم هو في جوهره ركام فانٍ، وكل ما يظنه أمان هو ظل

---

23 ديوان أبي العتاهية: 21.
24 ينظر: السلطة السياسية ومسألة الحكم الصالح الرشيد، برهان زريق،نشر من قبل ابناء المؤلف، دمشق ط1، 2016: 45.
25 علم الاجتماع السياسي، مولود زايد الطيب، دار الكتب الوطنية ، بنغازي، ليبيا، ط1، 2007: 79.
26 ينظر: الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول ، عيسى المصري، مكتبة الرائد العلمية، عمان- الأردن، ط1، 2007: 14.
27 الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، شرح عبد المنعم فريد، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت- لبنان، د. ت: 2|138.
28 ديوان أبي العتاهية: 163.

مؤقت لحقيقة الموت . فينزع الشاعر الهالة عن السلطة ويسحب قدسيتها الرمزية ، معليا من السلطة الحقيقية للزمن والموت.

وقوله ايضا:

أينَ القُرونُ بَنو القُرون وَ ذوُو المَدائِنِ والحُصونِ

وَذَوُو التّجبرِ في المَجا لِسِ والتّكَبرِ في العُيــــون

كانوا المُلُوكَ فأيّهُـــم لم يفْنِهِ رَيْبُ المَنـــــــونِ

ولَوْ عَلوا في عِيشَـــةٍ لَيسَتْ لأنْفُسِهِمْ بـــــــدونِ

صاروا حَديثاً بَعدَهـــمْ إنّ الحَديثَ لّذو شُجـــــونِ[29]

تتجلى في هذه الأبيات موقف عميق من أبي العتاهية تجاه السلطة والوجود الإنساني، فتبدأ القصيدة بسؤال استنكاري أين القرون الماضية ؟ أين الملوك وأصحاب الحصون والمتجبرون في المجالس؟ ليعلن منذ البداية ان السلطة والقوة مهما بدت راسخة فهي آلية إلى الزوال، ولا تستطيع أن تقاوم الزمن ،ويستحضر الشاعر صوراً تاريخية لعظماء مضوا كان لهم من المُلك والعز والتجبر لكن مصيرهم الاندثار التام، فالقبور لا تميز بين من سكن القصور أو الأكواخ. وهنا يجرد أبو العتاهية السلطة من ألقها ويكشف حقيقتها الفانية ليعصف بكل من يحاول أن يخلد نفسه بالجاه والنعيم.

وذكر في موضع آخر ظلم تلك السلطة ، فقال:

أمَـــا وَاللهِ إنّ الظّلمَ لُومُ وَلَكِن المُسيءَ هو الظّلــومُ

إلى دَيّانِ يَومِ الدّينِ نَمضي وَعند اللهِ تَجتمعُ الخُصُـــومُ[30]

يوجه الشاعر نقداً عميقاً للسلطة السياسية من منظور ديني أخلاقي، مؤكداً ان الظلم وان جاء من صاحب السلطة فهو لؤم وعيب لا يغتفر، ويذكر بزوال سلطته ومصير ذلك الحاكم هو محكمة إلهية عادلة لا تخطئ . فالشاعر لا يهاجم السلطة السياسية بشكل مباشر بل رفعت أبياته قيمة العدالة فوق كل سلكة بشرية ليجعل العدل أساس لشرعية السلطة والحكم.

وذكر في أبيات أخرى بأن السلطة السياسية قد تكون سببا في انحراف الإنسان ، إذ قال:

كَمْ مِنْ أخٍ لك نال سُلطاناً فكأنّهُ لَيسَ الذي كـــــانا

ما أسكَرَ الدّنيا لـصاحَبَها وأضَرها للعَقلِ أحيـــــانا

دارٌ لـــــها شُبهٌ مُلَبسةٌ تَدعُ الصّحيحَ العقلِ سكرانا[31]

تصور لنا هذه الأبيات على شكل لوحة فنية أثر السلطة في الإنسان ، إذ يذكر بأن الأخ القريب حين ينال السلطان يتحول ولا يعود ذلك الشخص الذي عهدته ، ثم ينتقل إلى تصوير وهم العظمة الذي يدفع الإنسان إلى الشعور بالتمايز والخلود بوصفها خمرة مسكرة تغشى البصيرة وتشوه العقل ، ثم يعود ليشمل الدنيا أجمعها بأنها شبه ملبسة أي خادعة

---

29 ديوان أبي العتاهية: 414.
30 م. ن: 398.
31 م.ن: 416.

تظل حتى صحيح العقل ، وبذلك فالوهم السلطوي عنده لا يشمل الجهلاء فقط بل حتى العقلاء منهم إذا لم يكونوا واعيين لحقيقته.

ويستمر أبو العتاهية في نقده للسلطة السياسية ، فقال:

ما اختلفَ اللّيلُ وَ النهارُ وَلا دارَتْ نُجومُ السماءِ فـي الفَلَكِ

إلاّ لنقْلِ السّلطـــانِ عن مَلِكٍ قـــــد انقضى مُلكُهُ إلى مَلِكِ[32]

وباستخدامه للصور الكونية لليل والنهار والدوران السماوي يقارن أبو العتاهية بين حتمية التغير الكوني وبين انتقال الدول والملوك، فكما لا يتوقف الفلك عن الدوران لا يخلد السلطان وينقضي دوره ليأتي آخر.

ومن هنا نستدل على أن أبا العتاهية لم ينتقد الملوك وسوء ادارتهم بشكل مباشر وصريح في أشعاره وإنما اختار أن يمارس النقد من رؤيته الزهدية الواعظة لتصل إلى جوهر الإنسان وماله، وبهذا حول الزهد إلى موقف مقاوم للظلم السياسي.

ثالثا: السلطة الاجتماعية

هي مجموعة من العادات والتقاليد والأعراف الواجب اتباعها ،التي اكتسبت مشروعيتها من التكرار والقبول الجماعي، فتُوجه سلوك الأفراد وتشكل وعيهم الجمعي ، الأمر الذي جعلها تشكل البنية الثقافية والفكرية للجميع. وتعدّ هذه العادات سلطة سائدة في المجتمع ، منها عادات عائلية وقبلية متوارثة وتقاليد اجتماعية، ومنها ما هو مرتبط بالمعتقدات الدينية[33].

وتنعكس هذه السلطة على الشاعر ، اما أن يجسدها في شعره تعبيراً عن انتمائه وامتثاله لها ، أو أن يتمرد عليها بنقدها ،وأبو العتاهية أحد ابناء المجتمع العباسي الذي تبنيه تقاليد راسخة، فلابد من الرجوع إلى أشعاره لأجل الكشف عن آليه توظيفه ورؤيته لأثر تلك السلطة في أشعاره، فقال:

المَرْءُ آفَتُهُ هوى الدنْيا والمَرءُ يَطْغى كُلما استَغنى

إني رَأيتُ عَوَاقِبَ الدنيا فتَركتُ ما أهوى لِما أخشى[34]

في مستهل قصيدته يفتتحها بنقد لواقع الإنسان في مجتمعه، حيث يرى ان آفة المرء الحقيقية هي خضوعه لهوى الدنيا ، ذلك الهوى الذي رسخته السلطة الاجتماعية ورسخت معه عادات تُعلي من شأن المال والمكانة والمظاهر فتصبح هذه الفكرة جزء من تكوين الإنسان دون أن يعي بذلك. وفي الشطر الآخر يطرح مسألة العلاقة بين القوة المادية والانحراف الأخلاقي ، لكنه يرى ان الانحراف لا يكون بسبب المال بل بما يغرسه المجتمع في نفس المرء من شعور بالتفوق الزائف على الآخرين.

وقوله:

وإذا اتّسعت برِزقِ رَبك فاجـــعلَنْ منْهُ الأجَلّ لأوجُـــــهِ الصّدقاتِ

---

32 ديوان أبي العتاهية : 316.
33 ينظر: الدين والسلطة قراءة معاصرة للحاكمية، محمد شحرور، دار الساقي، بيروت، ط1، 2014: 274.
34 ديوان أبي العتاهية: 22.

واخفِضْ جَناحَكَ إنْ رُزِقتَ تسلطاً وارْغَبْ بنَفسِك عن ردى اللــذاتِ[35]

كأن هذه الأبيات نظمت من باب النصائح الأخلاقية، فيذكران المال الذي يعدّ أهم مظاهر السلطة الاجتماعية ، يجب ان يستعمل في الخير والصدقات بدلا من تكديسه وانفاقه في التفاخر ، ونلتمس في القصيدة عينها ممارسة نقدية للسلطة الاجتماعية من خلال تحويل نمط السلوك من التكديس والاكتناز إلى التوزيع الاجتماعي المسؤول، فقال:

وإذا اتّسَعتَ برِزقِ رَبّكَ فاجعلَنْ منْهُ الأجَلّ لأوجُهِ الصّدقاتِ[36]

فيقدم نموذجا ثقافيا مضادا ، فيرى المال وسيلة لدعم المجتمع لا رمز للتفاوت والترفع.

وحملت أشعاره منظاراً آخر للسلطة المادية ، إذ قال:

إذا المَرْءُ لَمْ يُعْتِقْ مِن المَالِ رِقهُ تَملكَهُ المالُ الذي هُو مــــالِكُهْ

ألا إنّما مــــــالي الذي أنا مُنْفِقٌ وَلَيسَ لي المالُ الذي أنا تـارِكُهْ

إذا كُنتَ ذا مالٍ فبادِرْ بهِ الــذي يَحِقّ و إلاّ استَهــــلَكتَهُ هوالِكهْ[37]

تبين لنا هذه الأبيات عمقا فكريا عند الشاعر ، وذلك برؤيته إلى العلاقة السلطوية العكسية ، فبدلا من أن يكون المال خادماً لصاحبه، يجعله سيدا عليه، حيث يُحاصر الإنسان بثقافة تقديس المال ، فلا يعدّ الفرد حرا في قراراته بل هو مأسور بهواجس التكديس والثراء . ويحمل البيت الآخر إشارة إلى وهم التملك إذ يرى ان المال الحقيقي هو المال الذي ينفق ، لا المال الذي يُكنز ، لأن في لحظة الموت اليقينية ينفصل الإنسان عن كل ما يكنز ، ويبقى ما أنفقه هو الملازم له.

وحملت أشعاره نقدا للسلطة الاجتماعية التي تفرض على الفرد ما ليس من جوهره، فقال:

فَلا تَمشِ يَوماً في ثِيابِ مَخيلةٍ فــــإنّكَ من طينٍ خُلقتَ وماءِ

لَقَلّ امرُؤٌ تَلقاهُ الله شـــــاكراً وقَلّ امرُؤٌ يَرضى لَــهُ بقَضاءِ[38]

ان هذه الأبيات الشعرية لا تحذر من المظهر الفاخر لذاته، بل من رمزيته الاجتماعية (فثياب المخيلة) لا ترمز للملابس الجميلة فقط بل تحمل دلالة على الرفعة والانتماء الطبقي والثراء ، فيكشف لنا عن سلطة اجتماعية خفية ترغم الأفراد على ارتداء مظهر ليحترموا لتكون كهوية اجتماعية مفروضة لا خياراً شخصياً منهم ، وبسبب هذه الرؤية يثور أبو العتاهية على هذه السلطة الرمزية مذكرا (أنت من طين وماء).

وذكر أبو العتاهية ايضا:

أذَلّ الحِرْصُ والطّمَعُ الرقابَا وقَــــد يَعفو الكريمُ إذا استَرابَا

كــــأنّ مَحاسِنَ الدّنْيا سَرابٌ وأي يَدٍ تَناوَلت السّــــــــرابا[39]

---

35 ديوان أبي العتاهية: 79.
36 م. ن: 79.
37 م. ن: 371.
38 م.ن : 12.
39 م. ن: 32.

وفي هذين البيتين يقدم الشاعر تصورا عميقا للسلطة الاجتماعية التي تفرض على الأفراد قيم مادية وتستبدل الفضائل بالتنافس على المكاسب ، فالحرص والطمع عنده أقوى ضاغطة تذل رقاب الناس . وهو بهذا يقدم نقدا لحالة المجتمع بسبب خضوعهم للمادة وحرصهم على الدنيا هو هدفهم الأساس ، ثم ينتقل إلى صورة تمثيلية عالية التجريد حين يشبه محاسن الدنيا بالسراب ، ليقول ان ما نطارده من جمال وزينة ومكانة اجتماعية مجرد وهم بصري لا يمكن الامساك به.

ورأى الشاعر في الصمت تعبيراً عن حكمة ذاتية متحررة من ضغط السلطة الاجتماعية ، فقال:

يخوضُ أُناسٌ في الكَـــــلامِ ليُوجزوا وَ للصّمتُ في بَعضِ الأحايينِ أوْجَزُ

فإن كنتَ عن أن تحسنَ الصّمتَ عاجزاً فأنتَ عن الإبلاغِ في القــوْلِ أعجَزُ[40]

دعا أبو العتاهية إلى اعتماد الصمت كنوع من المقاومة الفكرية والتحرر من المظاهر الاجتماعية الزائفة ، فكأننا أمام دعوة فلسفية لإعادة النظر في السلطة الاجتماعية التي تكبح قوة التعبير الحقيقية وتفخم من الاستعراض الكلامي . فانتقد في هذين البيتين ظاهرة فوضى الكلام والثرثرة، كاشفا عن سلطة غير مرئية تجبر الأفراد على الانخراط في مجادلات سطحية بهدف الظهور والتفوق الاجتماعي لا من أجل تحقيق فهم عميق أو حكمة حقيقية.

وبذلك فإن أبا العتاهية يرى ان هذه السلطة تمارس تأثيراً قوياً في الأفراد من خلال فرض قيم وعادات تتعلق بالمظاهر والمال والطمع والكلام الزائف ، فهي غالباً ما تسلب الإنسان حريته الداخلية وتجعله عبدا لرغباته ، النابعة ليست من ارادته الحقيقية بل من خلال ضغوط المجتمع وأفكاره السائدة.

الخاتمة:

- لقد كان أبو العتاهية صاحب رؤية تتسم بالوعي والتمرد الهادئ ، هذا ما جعل شعره صوتا احتجاجيا ناعما ضد سلطات المجتمع.
- لقد كانت السلطة الدينية محوراً جوهرياً في شعره ، إذ لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده على احالة ضمنية أو صريحة لمفهوم العقاب والثواب.
- ظهرت أشعاره وعياً عميقاً لطبيعة السلطة السياسية فقد عبرت عن موقف نقدي غير مباشر تجاه الحاكم ، مستعملا اسلوباً متوازناً يمزج بين النصح والتمجيد ، الأمر الذي جعل شعره وسيلة لتقويم السلطة ومساءلتها اخلاقيا.
- كشف شعره عن وعي نقدي بالسلطة الاجتماعية ، معبر عن رفضه لسيطرة الأعراف والمكانة الاجتماعية على مصير الإنسان ، واستعمل لغة الزهد والحكمة ليقاوم مظاهر الترف والتمييز الطبقي.

---

40 ديوان أبي العتاهية: 222 .

المصادر والمراجع:

1- الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول، عيسى المصري، مكتبة الرائد العلمية، عمان- الأردن، ط1، 2007.
2- الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية، فراس السواح، دار علاء الدين، دمشق، ط8، 1998.
3- الإسلام والسياسة-دور الحركة الإسلامية في صوغ المجال الإسلامي، عبد الله بلقريز، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب، ط1، 2001.
4- الأغاني، أبو فرج الاصفهاني، شرحه سمير جابر، دار الفكر، بيروت-لبنان د. ت.
5- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي ، شرح عبد المنعم فريد، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت-لبنان، د. ت.
6- الانتماء السياسي للسلطة في شعر العصر العباسي الأول، احمد عباس عبد عساف ونجم عبد علي رئيس، مجلة كلية التربية ، العدد 33، 2018.
7- تاريخ الشعر في العصر العباسي، يوسف خليف، دار الثقافة ، القاهرة، 1981.
8- تاريخية الفكر الإسلامي، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، ط3، 1998.
9- تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، فاروق سعيد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط24، د. ت.
10- جواهر الأدب ، احمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط27.
11- خمسة مداخل إلى النقد الأدبي مقالات معاصرة في النقد، وليبرس سكوت، ترجمة عناد غزوان وجعفر صادق الخليلي، دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد، 1986.
12- دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعيد الباغي، المركز الثقافي العربي ، بيروت ط3، 2002.
13- الدين والسلطة قراءة معاصرة للحاكمية، محمد شحرور، دار الساقي ، بيروت، ط1، 2014.
14- ديوان أبي العتاهية ، دار بيروت، لبنان، 1986،
15- السلطة السياسية ومسألة الحاكم الصالح الرشيد، برهان زريق، أبناء المؤلف، دمشق، ط1، 2016.
16- علم الاجتماع السياسي، مولود زايد الطيب، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2007.
17- غواية التراث، جابر عصفور، سلسلة الكتاب العربي، وزارة الإعلام الكويتية، مطبعة حكومة الكويت، ط1، 2005.
18- في الطغيان والاستبداد والدكتاتورية، دولة خضر خنافر، دار المنتخب العربي، بيروت، د. ت.
19- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي ، دار احياء التراث العربي.
20- مشيل فوكو المعرفة والسلطة، عبد العزيز العيادي ، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط1، 1994.
21- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
22- معجم مقاييس اللغة ، احمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.
23- مقدمة في نظريات الخطاب، دايان مكدونيل، ترجمة عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 1994.